النسق الثقافي في الخطاب الإبداعي الجزائري– الروائية آسيا جبار أنموذجا.

Cultural Pattern in Algerian Creative Discourse The Novelist Assia Djebar as a Model.

لواحش نادية[1]، بلاز نور الدين[2]

[1] المركز الجامعي عبد الله مرسلي، مخبر الممارسات الثقافية والتعليمية والتعلمية في الجزائر، تيبازة، الجزائر، الإيميل: louahche.nadia@cu-tipaza.dz

[2] جامعة علي لونيسي، البليدة، الجزائر، الإيميل: bal-nrd@yahoo.fr

الاستلام: 31- 01-2024 القبول: 01-04-2024

ملخص:

يسعى النسق الثقافي لإبراز البنية العميقة للخطاب الروائي والقيمة الفنية التي فيها، وإبراز الجماليات التي تمارسها اللغة. بما أن النص الروائي وعاء لجميع الخطابات، ومنظومة فنية وفكرية تنظمها الأنساق المضمرة التي تؤسس لثقافة ما، أبرزها ثقافة المبدع الحالمة باستثمار قضاياه ومواقفه من الحياة والوجود، فالنسق الثقافي هو بؤرة الخطاب، حيث يستبطن مضامينه وأشكاله الاجتماعية والتاريخية والسياسية والأيديولوجية، فتهدف الذات المثقفة الكاتبة إلى تشريح الواقع والإنسان وعلاقته بالوجود.

كلمات مفتاحية: النسق، الذات، الرواية، آسيا جبار، الكتابة الإبداعية.

Abstract:

The cultural pattern aims to highlight the underlying structure of the novelistic discourse and the artistic value it carries, emphasizing the aesthetics practiced by language. Since the novelistic text serves as a vessel for various discourses, forming an artistic and intellectual system regulated by implicit patterns establishing a culture. It is manifested by the dreamer creator, investing in issues and positions in life and existence. The cultural pattern is the focal point of discourse, encompassing its social, historical, political, and ideological contents. The cultured self of the writer seeks to dissect reality and humanity, exploring their relationship with existence.

Keywords: Pattern; Self; Novel; Assia Djebar; Creative Writing.

المؤلف المراسل: لواحش نادية، الإيميل: louahche.nadia@cu-tipaza.dz

1. مقدمة:

يتميز النقد الثقافي بمصطلحاته ومقولاته ونظرياته واختلاف طروحاته وإشكالاته المعرفية الأساسية التي تنقل الواقع الإنساني في أشكال ومضامين إبداعية تعبر عن الثقافة والفن ومظاهر الطبيعة، عبر النصوص الأدبية وقيم الجمال ومبادئ الفكر والفلسفة، فيوظف مختلف النظريات السوسيولوجية والأنثروبولوجية والبسيكولوجية من أجل إخراج إنتاج إبداعي يعبر عن حاجات الإنسان ولعل بنية النص العميقة هي المفتاح الدقيق لكشف أشكال الخطاب الإبداعي ومضامينه.

هدفت دراستنا الحالية إلى استنباط النسق الثقافي في الخطاب الروائي لدى آسيا جبار وكشف توظيف الذات النسوية فيه، بالاعتماد على منهج القراءة والمقاربة النقدية الثّقافية، ومنطلقة من سؤال إشكالي مفاده:

– كيف اشتغل النسق الثقافي الأنثوي في الخطاب الأدبي عند الروائية آسيا جبار؟ أو كيف وظفت الروائية آسيا جبار نزعتها الذاتية الأنثوية وثقافتها في كتاباتها الإبداعية؟

2. العلاقة بين النّسق الثّقافي والذّات:

يتفوق الخطاب النقدي بالتحول والتعدد والتجدد على المستوى النظري والمنهجي، ولعل فعل القراءة، و التفاعل المعرفي هو الذي منحه هذه الدينامية النقدية والفنية ليخضع العمل الأدبي لمقاربات لغوية وفكرية وتاريخية وتأويلية مختلفة، فيؤسس موقعه في الحياة الثقافية بل ويطورها، بواسطة الثراء والزخم المعرفي والاحتكاك بالمنجز الأدبي وقراءته فكريا وفنيا ضمن بيئته الثقافية، ليصبح النص/ الخطاب الأدبي بطاقة الهوية للسياق الثقافي للإنسان، يرسم زمكانية الفرد والعصر وتساؤلاته وقضاياه، فالنص ثقافة ورؤية مثقف وخطاب ثقافي لجماعة ما.

وظل الناقد يبحث في وظائف وخصائص النص الإبداعي الفكرية والجمالية في إطار الخلفيات المعرفية بعيدا عن الذاتية ليجدد نظرته حول اشتغال الخطاب النقدي بالمضمون الثقافي المجتمعي، فأصبح وجود الخطاب مرهونا بوجود خطاب آخر مختلف عنه يراعي نسقه المعرفي وسياقه الثقافي من

رواية وشعر ومسرح وقصة. إن النقد الثقافي كآلية مقاربة واستراتيجية قراءة للخطاب الإبداعي ومساءلته هي في الحقيقة بؤرة انفتاحه على عدة قضايا ومفاهيم وأطروحات ونظريات، ومنه قوة العمل على تأويل النص/ الخطاب الأدبي واستنباط مضامينه الثقافية والفنية والتاريخية والاجتماعية.

إن الخطاب الأدبي ليس وثيقة تقريرية تنقل الواقع بتفاصيله أو رسالة مليئة بالحجج والبراهين موجهة لاستعطاف واقناع المجتمع، بقدر ما هو صياغة للحياة الواقعية وترجمة لعوالم النفس الإنسانية؛ لهذا كان هدف النقد الثقافي استبطان الأنساق المضمرة التي تتوارى وراء القيمة الفنية والجمالية للخطاب/ النص الأدبي بكشف القراءة والممارسة النقدية الحقة والإجرائية، بما يعتمده هذا المنهج على الزخم المعرفي والتراكم الثقافي واتساع أفق القارئ والمتلقي المثقف للخطاب الروائي.

إن هذا المشروع النقدي– النقد الثقافي– يعتمد على المعمار الإيديولوجي الذي تشيده البنيات الاجتماعية والتاريخية والسياسية، وإن تعددت أطيافه فمركزه النص والنسق باعتبارهما أدوات تشريح وتفكيك وتنقيب بؤرة العمل الأدبي الإبداعي، فهو الرؤية الجديدة لبعث القيم الكامنة في النص، بل يحاول استقراء النص من خلال دراسة وظائفه واستنتاج أنساقه، والبحث عن الدّلالات الباطنة في أعماقه، ومحاورة مضامينه المتوارية في ثناياه، هذا الخطاب/ النص الذي يحمل حضارة ما، بقي حبيس الغموض وبعيدا فكريا وفنيا عن الناقد والقارئ، خاصة وأن هذه المضمرات التي هي مصدر اهتمام الدرس النقدي، وبمثابة ركائز جوهر النص، لها علاماتها وإيماءاتها المعرفية والجمالية.

إن الأشكال والمضامين المبنية على مقولات ورؤى النقد الثقافي ضمن الخطابات الثقافية والسياسة والإيديولوجية التي تتجه إلى كشف حيل الثقافة كمحاولة تمريرها لثقافة تتحكم بأنساقها وتفرض سلطتها على ثقافة أخرى أشدها تحكما إيديولوجيا وفكريا. "... يحاول النقد الثقافي في تعامله مع النصوص الأدبية إبراز الصراع الطبقي الدائم الذي تحاول أثناءه كل طبقة ترسيخ القيم الثقافية التي تخدم مصالحها هي. في ذلك الصراع الطبقي تحدد القوّة أو السلطة طبيعة العلاقات الاجتماعية، ومن ثم طبيعة المنتج الثقافي". (الغذّامي، 2008، الصفحات 81-82)

تتعدد المفاهيم والتعريفات في تحديد مفهوم وتعريف دقيق للنسق ومن أبرزها هو النظام فكل ما يجري على نظام واحد هو النسق كما جاء في تعاريف المعجم الوسيط على أنه مرادف لمعنى "البنية structure" أو بمعنى "النظام system" حسب منظور "دي سوسير" اللساني.

ويتجلى النسق كمصطلح نقدي عبر وظيفته الإجرائية لا عبر بعده التنظيري الفلسفي، فميزة التحول لديه من حقل معرفي إلى آخر منحه الطاقة التعبيرية والفكرية والفنية من خطاب إلى آخر إضافة للضبط الذاتي: فالنسق ينظم نفسه بنفسه ويحسن من أدواره بين رؤى وأخرى فاكتسب التحرر لذاته وبذاته أي يتأرجح بين الغاية والوسيلة في آن. كما يمتاز بالشمولية: فهو يشمل غيره من الأنساق في عدة مواضيع وأشكال فكرية وإيديولوجية وفنية. ومنه تتلخص صفات النسق كالتالي:

– يتقيد النسق بغيره من الأنساق المضمرة في الخطاب الواحد وفي الحكم نفسه.

– يختلف النسق عن غيره بالتناقض والتضاد وفي الخفاء والتجلي وذلك لإبراز القيم الجمالية وبعث التراكم والتنوع الثقافي للنص الإبداعي.

– شمولية وشهرة النص الأدبي الثقافي كونه يبرز ويعالج ثقافة مجتمع وعليه يكون الخطاب موجه على فئة جماهيرية كبيرة تسعى لاستيعاب ثقافتها وعليه التشجيع على القراءة الواسعة.

– أن يتميز النص أو المنتوج الأدبي بالسمة الجمالية ويبعث بالقيم الثقافية الراقية بغية التأثير في المتلقي وتحفيز ذائقته الفنية.

وذلك لأن البعد الدلالي للنسق المضمر والنسق الثقافي خاصة ليست مجرد صناعة من المؤلف ناقدا كان أم مبدعا، بل لأنه متجذر في الثقافة التي أنشأته والوعي الذي أدركه به القارئ وعملية القراءة، "فإن الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الأصل النظري للكشف عن والتأويل، مع التسليم بوجود الدلالات الأخرى، الصريح منها والضمني، والتسليم بالقيمة الفنية وغيرها من القيم النصوصية التي لا تلغيها الدلالة النسقية، وليست بديلا عنها، بل إننا نقول إن هذه الدلالات وما يلتبسها من قيم جمالية تلعب أدوارا خطيرة من حيث هي أقنعة تختبئ من تحتها الأنساق، وتتوسل بها لعمل عملها الترويضي الذي ينتظر من هذا النقد أن يكشفه" (الغذّامي، 2008، الصفحات 78-79).

فالنسق هو ذلك العالم الثقافي الذي يشيد تاريخا وفنا وإيديوليجية ومعرفة راسخة في الوعي المجتمعي تدعمه لتأسيس تلك الحياة والثّقافة الأزلية للإنسان. ومنه اكتسب الخطاب الأدبي تلك القيم الفنية الراقية والأبعاد المعرفية والنفسية والتاريخية والاجتماعية والسياسية، وتحيين الحياة الثقافية للمبدع العربي كذات منتجة لثقافة ما وللقارئ العربي كمستهلك ومتلق ليمتع ويتشبع بالثقافة الوافدة.

فالنسق الثقافي هو البؤرة الفكرية والفنية في الخطاب الإبداعي كونه المعالم المعرفية النقدية لقيام النص الأدبي، فلغة المنتج الأدبي تفرض ذاتها من خلال الثقافة الواسعة التي تشمل الحضارة الإنسانية والثقافة الإنسانية وعناصر حياة الإنسان، فالثقافة هي العملة الوحيدة للنص، أو هي اللغة التي يبوح بها الخطاب الأدبي ليبرز ذاته الفكرية والفنية، ويؤيد هذا الطرح الناقد "وحيد بن بوعزيز" بقوله: "إن النقد الثقافي هو استنطاق النصوص المطموسة في المجتمع، النصوص المقموعة والمهمشة والمحتقرة باعتبارها لا تنتمي إلى المعتمد الرسمي المدروس في النقد الأدبي من طرف جماعة اجتماعية من النخبة تخدم مصلحة أو طبقة معينة". (بن بوعزيز، 2018)

يتميز النسق الثقافي ببنية عميقة ودقيقة تنتشر داخل الخطاب الأدبي فهو البنية المضمرة التي تنفتح جمالية النص، وعليه يستفز الغموض الاستراتيجية القرائية من الغوص في ثنايا الخطاب، فالنسق المضمر "هو كل دلالة مختبئ تحت غطاء الجمالية، ومتوسلة بهذا الغطاء... يحيل عليه شيء من النص" (خليل، 2005، صفحة 294)؛ فالخطاب دوما ما يحمل نسقين بارزين هما نسق ظاهر ونسق مضمر يحملهما التعاكس والتعارض. وهذا سر تصاعد جماليته الفكرية والفنية واستثارة المبدع للكتابة والتأثير في القارئ للقراءة. والنسق المضمر يسيره نوعان من المضمران هما:

– ينتجه المؤلف العلني المتمثل في المؤلف/ المبدع/ الروائي هي الروائية آسيا جبار.

– والمؤلّف المضمر يأتي حصيلة "الثقافة"، وبناء عليه يصبح لرواية "نساء الجزائر" كاتبان هما:

أ–كاتب علني: وهي الروائية "آسيا جبار" وينسب لها هذا الخطاب الإبداعي.

ب–كاتب ثان: خفي ومضمر يتمثل في الثقافة التي كرست لإنتاج هذا الخطاب الروائي باعتبار مضمونها التاريخي والفني والاجتماعي والسياسي والإنساني والنفسي والإيديولوجي.

والنسق المضمر الثقافي في الخطاب الروائي لآسيا جبار نسق منغلق على ذاته المنفتحة على جميع المعاني معنى الحب ومعنى الأرض ومعنى الحياة ومعنى الظّلم ومعنى البقاء. ومنه خلق التركيب لدى الشخصية والمرأة خاصة؛ فشخصية فاطمة هي المرأة الفاضلة والعفة والولاء ولها البعد الديني ومصدر الحنان والقوة وتلاحم الأسرة، وعليه الحفاظ على المجتمع والوطن كافة.

يعتبر الخطاب الروائي عملا إبداعيا و "تجسيدا لرؤية العالم، بالمفهوم الغولدماني، التي تصنعها الذات الروائية الواعية بحاجة الوجود إلى الكتابة، كبؤرة فاعلة تناظر الحياة وتوازيها، وتفسر علاقة الإنسان بالوجود، ومواقفه من العالم والتاريخ والزمان وارتباطه بالمكان، لكنها تبقى ذات خصوصية فنية وكيانا متميزا عنها، تتشابك وتتداخل معها في علاقة جدلية خلاقة بين الواقعي والمتخيل، ذلك أن هذا الأخير لا يكون انطلاقا من الحياة مصدر الخامات الأولية، ومنبع الوجود التي يحاول المبدع التقاط أشياء منها، يخلصها من واقعيتها، وبحركة إبداعية يعيد تشكيلها وخلقها بأوضاع جديدة لم تكن معروفة في الحياة، أوضاع تتطور فيها الأشياء بموجب قانونها الخاص". (سي يوسف، 2014، صفحة 91)

3. أشكال النّسق في الكتابة الرّوائية:

"آسيا جبار" تصوغ المضامين الفكرية للحياة العربية والجزائرية خاصة باستثمارها للفضاءات الفنية للغة في جوهر الخطاب الروائي، فتندرج الحمولات الدلالية على أنساق رمزية جمالية انطلاقا من رؤية المبدع الثقافية الخاصة للولوج إلى القيم الفنية والفكرية للذات المبدعة، وهذا ما تنشده الروائية.

إن انصراف الروائية "آسيا جبار" إلى ترسيخ المنظور السلبي من خلال تمجيد الدور الذكوري والتركيز على شخصية "مسيلمة" في المشهد الرئيسي، وجعله المحرك الأساسي للأحداث والوقائع في مقابل التقزيم الواضح للمرأة، وقد مثلته شخصية "سجاح" في الرواية التي يظهرها في صورة الضحية العاجزة عن أخذ زمام المبادرة والتحكم في مصيرها، حين تستسلم له بهذه السرعة خوفا من تركها". (بولفعة، 2020، صفحة 176) فالكتابة أو الرواية عند آسيا جبار تتحول إلى حياة والحياة إلى كتابة من أجل ترسيخ الأفكار المثقف وبالتالي تأسيس مفهوم الثقافة.

ونستخلص من هنا أن الروائية "آسيا جبار" استغلت التاريخ، ولكن ليس من أجل كتابة التاريخ بل لنقل الذات المثقفة الصانعة للتاريخ، وكذا نقل الأبعاد الأسطورية للتاريخ الإسلامي الذي يستحق التخليد والتمجيد ضمن قالب تخييلي وفكري وإبداعي تستكشفه الكفاءة القرائية الضمنية والمتشبعة بالخطاب الروائي لجبار وطقوسها في الكتابة الإبداعية.

فالعطاء الجمالي في كتابة "آسيا جبار" بارز وذاتها الفنية تحاور كل الخطابات في ثنايا منتوجها الأدبي، "إذا كانت مقدرة الفنان وإمكانية الخلق هي التي تعطي العمل الفني درجة تميزه وتفوقه، فإن الخيال وإن كان جزءا أساسيا من عناصر العمل الأدبي، إلا أنه لا يستطيع وحده أن يخلق شخصيات نمطية يتجسد فيها ما يضطرب في مرحلة تاريخية محددة من الأحداث التي تزلزل الضمير الإنساني، ومن هنا كانت ثورة الشعب الجزائري تتويجا للآلام التي كابدها الشعب الجزائري، بحيث أصبح أدباء الجزائر جزءا رئيسيا من جبهة القتال، وأصبح الموضوع الذي تدور حوله جميع أعمالهم هو حرب التحرير ومقاومة المستعمِر رفضا للاستغلال والتسلط. (شرف، 1991، صفحة 63)

1.3. استعادة نسق المهمش:

يظهر من خلال عناوين الروايات التي تكتبها "آسيا جبار" نساء الجزائر وآريس رسمها الكلمات المؤثرة والحساسة لتصوغها عناوين تستقطب ذات القارئ المثقف الحامل للقضية، فالعنوان صورة ثقافية مثبتة في الوعي تفتح رسالة الذات والهم المعرفي والإيديولوجي والنفسي والسياسي للذات الإنسانية التي تقدم نفسها باعتبارها نسقا ثقافيا مضمرا، يفرض على القارئ من البداية التفكير فيه في الحقيقة الثقافية التي تتخفى خلف أقنعته المتطورة، وتفرض عليه البعد الثقافي بمواقف قبلية للماضي التليد ومواقف بعدية لاستشراف المستقبل، هذا ما أدى بالكاتبة إلى تعرية الواقع ومعالجة قضاياه ومحاورة مظاهره.

وهذا دليل على أن الرواية تشتغل على إعادة الاعتبار لصورة الجزائري والعربي في المتخيل والذاكرة الثقافية الجزائرية في إطار إشكالية الهوية الأبدية في الثقافة الجزائرية، وهي المسألة التي تستدعي القارئ إلى استجلاء العلاقة بين الخطاب الروائي والثقافة إضافة إلى التاريخ، فرؤية المبدعة "آسيا جبار" للرواية وكتابتها باعتبارها صياغة وصناعة لعالم جديد، حيث تستعيد واقعا تاريخيا لتدبير

عملية إبراز البعد الثقافي الهوياتي الذي عبرت عنها الكاتبة بالتعايش، وهو ما يثير لإمكانية التأويلية الأولى التي تجعل القراءة الثقافية تثير تموضعها في ظل خطابات الثقافة العالمية الإنسانية.

إن اشتغال النسق الثقافي على مستوى المعرفة والوجود والتاريخ والإنسانية هي ما جعل التجربة الشعرية والشعورية، ذلك أن الخطاب تجاوز كل الحدود معبرا للثقافة والقيم الإنسانية التي تطمح أن تظهر كخطاب إبداعي وجمالي، والتي تتجلى من بؤرة توتر الذات التي دوما تسعى أن تعرف، هذه الذات التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من المعمار الثقافي المنسجم الذي يتميز بها النص الثقافي بقيمه النسقية التي منحت الحياة للخطاب، وبخاصة الخطاب الأنثوي وصوت المبدعة في إبراز عوالم المرأة وفلسفتها في الوجود الإنساني.

2.3. الذات المتصوفة:

تعتبر "آسيا جبار" الرواية سجلا لحياة الأديبة والمرأة المثقفة التي تنبش في أسرار الطبيعة المتقاربة من حياة المرأة، باستنباط كنوز الثّقافة وحمولاتها التاريخية، السياسية، الاجتماعية، النفسية، والأيديولوجية. إن كينونة الذات المفكرة المتطلعة للوجود تحمل روحا صوفية تتناثر في شبكة اللغة بكل ما تحمله من أبعاد معرفية ونفسية وعرفانية، فالعجوز المستسلمة لظروف حياتها لشدة الإيمان بالقدر والتمسك بإرادة الحياة، فالذّات المتصوفة المؤنثة غارقة في الفكر الصوفي، فاللغة تأخذ منعرجا عرفانيا لتؤسس للعالم المعرفي الوحيد لها، والذي يسمح بالوجود بشكل يجعل منطق الخطاب الصوفي، باعتبار الذات المؤلفة تحمل قيما إنسانية وإنسانا صوفيا له كينونته الصوفية عبر النسق الثقافي الكائن بالحياة والجمال فتبعثرت جل المعاني في الخطاب الروائي وأنساق الخطاب من بعث دلالات العدم والقلق والموت والحب والسلام والخير.

إن الذات ذات الرؤية الصوفية تتخيل موضوعات واعية سامية تغرق خارج الزمان والتاريخ بل مواضع ذات رموز تحيل إلى العناصر والأبعاد الأسمى للوجود من العالم المادي إلى العالم الروحاني، حيث تجول الروح بخواطرها وأفكارها ورؤاها، كونها الكيان المتسامي ومن نوازع تفاؤلية العالم الإنساني وعوالم مجازية، إذ الوعي الصوفي متجل لفهم أعمق للعالم.

إنه سعي الذات للعالم الإلهي وتساميها بتساؤلاتها، فالذات الصوفية مليئة بالمفارقات والتجليات في قلق معرفي للبحث عن أسرار الوجود والتساؤل لفهم الطبيعة والطبيعة الإنسانية، ما يبين العلاقة الروحية للذات بالمعرفة وتشبثها بالثقافة والغوص في نفحات الكينونة الإلهية، فتسمو في تناقضاتها الوجودية لتعطي مقصدية كائنة مطمئنة من أجل الحياة والموت، فالحياة الحقيقية تمثل الكتابة والإبداع والثقافة المنتشرة أما الموت فهي التخلف والحقد والحرب.

لذلك تستعين الذات المبدع بمخيلتها التاريخية والنفسية في توظيف مواقفها التي تنسجها في حبكة دقيقة؛ كي تلبسها للشخصيات حسب قدراتها الفنية والفكرية بين شخصيات بطلة رئيسية وشخصيات ثانوية هامشية، عبر الخيال الجامح الذي يعيشه المبدع في قلق معرفي رهيب لا يغادر المثقف حتى يجسد خطابه الثقافي في أرواح تتحاور وتتصارع، وتحب وتكره، وتتفاهم وتمارس حياة بشكل ما من أشكال الحياة الخارجية الواقعية للإنسان العربي والمثقف والإنسان كاملا كجزء كبير من هذه الثقافة.

4. تجليات النسق التاريخي في رواية "آسيا جبار": "نساء الجزائر":

إن الفاحص للمنجز العربي الروائي عند "آسيا جبار" يلحظ التفاتها للتاريخ وتعمقها فيه بذكر تفاصيل التاريخ الجزائري وكفاح الذات الجزائرية، وسعيها لفرض ثقافتها وحضارتها على جميع الأصعدة، فتمزج بين السرد والتاريخ ليتلاحم كلاهما في الزخم المعرفي والفني والفكري، فتماهت البنيات النصية بينها.

1.4. نسق الذات والذاكرة التاريخية:

لطالما تعلق التاريخ بالإطار الجغرافي والمكان والفضاء التي هي مخازن المرأة لأسرارها وأحداثها ومقولاتها، فهذه الأماكن تحيل على حياة المرأة العربية المسلمة والمتمسكة بعاداتها وتقاليدها، فيسكنها التاريخ والماضي الذي يرفض أن يمضي، فالمكان هو هوية المرأة كونها سيدة البيت وعمود الدار والحصن المنيع للأسرة، فجعلته الروائية منطلقا روائيا لاستحضار التاريخ الجزائري المجيد والتنقيب في

الذاكرة الجماعية والفردية للإنسان، فكانت الأرض والكوخ والمغارة هي البؤرة الحساسة للذاكرة والثورة والحب وهدف البقاء والحرية.

لقد تقصدت الروائية منح المكان الأهمية البالغة للتساؤل الفكري والوجودي للذات الثائرة، وحلمها الكبير في استعادة الوطن والتحرر وإسماع صوتها وتقرير مصيرها في الحياة، ومنه إعلاء صوت ثقافتها وقوتها وحقوقها الإنسانية الكاملة، وهي تقنيات تستحضرها الأعمال الإبداعية الكبرى بغية "إعادة التذكير بالأحداث الماضية أو المقارنة بين موقعين، أو لرصد وضعية الشخصية في مرحلتين مختلفتين". (لعور، 2009، صفحة 36)

لقد حورت الروائية بأسلوب كتابتها الشخصية التاريخية باسترجاعها التخييلي للتاريخ والذاكرة الجماعية، وأبرزها الذاكرة النسوية التي تؤرخ لتفاصيل عوالم المرأة المعذبة بالوطن، والتي تسكن الوطن والوطن يسكنها، وذلك برسم صورة تخييلية تتجاوز الزمان والمكان عبر اللغة بقيم فنية تنفتح جماليا بصراع الأنساق المتداخلة، وتجاذبها بين بنيات النص العميقة لإعطاء تيمة الحياة للخطاب الروائي.

فيؤكد خطاب "آسيا جبار" على خطاب "نساء الجزائر" على درجة الوعي التاريخي للشخصية الأنثوية للمرأة الجزائرية إبان الثورة التحريرية. إذن فهي إعادة بناء خيالي للماضي الجزائري الذي يتمتع بالغنى الجمالي من الجانب النسوي البارز بالحياة بالعادات والتقاليد الجزائرية والأمازيغية للمرأة البطلة الصانعة للتاريخ والوطن، فكان الخطاب الجباري بذلك مهادا شرعيا للسيرة الذاتية للذات الحاملة للتاريخ والحياة من أجل تخليد ذاتها وإيصال رسالتها. ومنه تبرز الشخصية الدبلوماسية للمرأة كونها صانعة لمنتوج ثقافي جمالي، ما جعلها تصنع القرارات الحكيمة في مسار الثورة والكفاح المسلح، وكذلك "فالسياسة نسق ثقافي يتمثل بفعل وظيفي سلطوي، ينطلق من موقعها القانوني أو العرفي/ الاجتماعي في التزام وارتباط الناس بها. لهذا يحدد "بارسونز" فعل السياسة بقدرتها على اتخاذ أو سن القوانين والقرارات الملزمة التنفيذ من المجتمع الذي يعني اعترافهم بها ودعمهم لفعلها بالتطبيق والانصياع لقوانينها وقرارته" (لومان، 2010، الصفحات 35-37)

فالروائية لدى "آسيا جبار" صرح ثقافي قائم بذاته وعالم فني يشيد الثراء الثقافي لمضامين الخطاب الثقافي عندها بالأنساق المضمرة التي تعتبر من أعمق تقنيات الكتابة الروائية، وخصوصا لتلك المرحلة التاريخية للجزائر؛ فلها صفة التمايز على مستوى الأسلوب الروائي الصارخ بالتيمة النسوية لديها.

فالخطاب الروائي المكتوب باللغة الفرنسية وثيقة ثقافية وفنية وتاريخية متميزة، عمدت بها الروائية نقل ثقافتها في كنف المستعمر وثقافته الاستدمارية؛ ليفهم المحتل الحمولة الفكرية التي تشغل الفرد الجزائري، إضافة لتوصيل النص والصوت الجزائري إلى العالمية، فكانت اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي يكتسب بها الأدب جماليته، والخطاب الأدبي عند "آسيا جبار" خاصة التي تناجي التراث العربي والموروث الإسلامي من خلال لغتها الإبداعية المنفتحة.

وتعتبر الأديبة "آسيا جبار" رمز الكتابة الفرانكفونية، فتتميز تيمة السرد لديها بالانفتاح الثقافي والإنساني بين حضارتي الغرب والشرق، فتتفجر لغتها بالرموز من خلال استحضار الشخصيات البطلة وتنوع الرؤى الفكرية والفلسفية والإيديولوجية والسياسية للمثقف والذات العربية والذات القارئة ذات الوعي الإبداعي بالخطاب الإنساني وحلم الإنسان إبان الاحتلال.

إن سعي المبدعة من أجل ابراز أسئلة المثقف والمتلقي للخطاب الروائي المزدحم بعوالم الإنسان الاجتماعية والأيديولوجية والسياسية والنفسية هو استكناه للذات الجزائرية والذات العربية المثقفة لفهم ومعالجة عالمها. ومثال هذا الطرح ما جاء في رواية "ظل السلطان"، فالشخصية البطلة "حجيلة" و"إسمى" يسودهما التناقض والقلق المعرفي والاختلاف الثقافي لاختلاف عالميهما بين ثقافة شرقية عربية لها قيم ومبادئ دينية ومعالم راسخة للعقيدة الدينية السمحة، وشخصية معاكسة تماما ذات ميزة متمردة مليئة بالتحرر والانفتاح على الثقافات الأخرى، فلا هوية ثابتة لها.

هنا يلتقي العالمان المتناقضان المتصارعان بحضارتين مختلفتين، فاختلاف الأنا والآخر وصدامهما ببعضهما متجذر ومتنوع من أجل صنع رهانات وخصائص الاختلاف الثقافي، ما يبرز الصراع بين الحضارة الشرقية البائدة والغابرة في الزمن والتاريخ الغنية بتراثها وأصالتها والحضارة الغربية القائمة بمعالمها وصفاتها الداعية للتطور والعولمة.

تعمل الفلسفة النسوية على فضح كل هياكل الهيمنة وأشكال الظلم والقهر والقمع، وتفكيك النماذج والممارسات الاستبدادية، وإعادة الاعتبار للآخر المهمش والمقهور، والعمل على صياغة الهوية جوهرية الاختلاف، والبحث عن عملية من التطور والارتقاء المتناغم، الذي يقلب ما هو مألوف ويؤدي إلى الأكثر توازنا وعدلا.

أمعنت إذن الفلسفة النسوية في تحليلاتها النقدية للبنية الذكورية التراتبية، وتوغلت في استجواب قسمتها الغير عادلة، وراحت تكسر الصمت وتخترق أجواء المسكوت عنه، حتى قيل إنها تولدت عن عملية إعطاء أسماء لمشكلات لا اسم لها وعنونة مقولات لا عناوين لها. (شيفرد، 2004، صفحة 172)

2.4. نسق المرأة في الفعل الإبداعي:

يذهب معظم النقاد والباحثين إلى أن "سلطة الرجل على المرأة في المنجز الإبداعي ليست إلا مغالاة مفرطة، بل مغالطة لا تضيف للوعي والثقافة شيئا فتحولت إلى حافز في العملية الإبداعية النسوية". تعتبر هذه المقولة من بين أكثر ما يتردد لدى النقاد والتي تنطلق من أن الرجل/ الفحل احتكر الكتابة لنفسه، ومنع المرأة من تملكها، ولعل هذه المقولة على سذاجتها وتهافت ركيزتها ومنطقيتها- إن كانت تمتلك منطقا- إلا أنها تتكرر باستمرار وبصورة كبيرة، حتى أضحت تقدم كحقيقة تاريخية لا جدال فيها.

ويأتي "الغذامي" على رأس من اشتغل على خلق ثم إثبات هذه النظرية، وقد تبعه الكثيرون من النقاد- دون مساءلة- فيما ذهب إليه، بل ندعي أنه لا تكاد تخلو دراسة للكتابة النسوية من الإحالة على كتبه والاستشهاد بأقواله. ويرى "الغذامي" أن الرجل أخذ الكتابة واحتكرها لنفسه وترك المرأة للحكي، وهذا أدى إلى إحكام السيطرة على الفكر اللغوي والثقافي وعلى التاريخ من خلال كتابة هذا التاريخ، بيد أن من يرى نفسه صانعا للتاريخ... ولم تكن المرأة في هذا التكوين سوى مجازا رمزيا أو مخيالا ذهنيا يكتبه الرجل وينسجه حسب دواعيه البيانية والحياتية. (بوغنجور، 2022، صفحة 121)

لعل هذا ما جعل أسس الكتابة لدى "آسيا جبار" مركزة على الذات والذات المثقفة خاصة، هذا يبرز بوضوح في روايتها "الحب والفنتازيا"، كونها سيرة ذاتية تكشف فيها الكاتبة قضيتها الذاتية المتمثلة في قيمة الحب لدى المرأة، والبحث عن المتنفس له عبر فعل الكتابة، فاتخذت هي العملية الإبداعية متنفسا لها، وبل وظيفة ثقافية تسمع العالم صوتها كأنثى وامرأة تعاني في الحقبة المحتلة، حيث لا مكان للمرأة فيها، فكانت نموذج المرأة العربية المكافحة من أجل بقائها.

لذلك تمثل الكتابة الإبداعية التأسيس والبناء الفكري والإيديولوجي والنفسي والتاريخي لدى "آسيا جبار" وقوة النص الانزياحية والجمالية التي ميزت أسلوبها في الكتابة، فلا تكتفي الرواية بفتح أفق التوقع والمتعة الفنية لدى القارئ فحسب، بل تطرح تساؤلات وجود المثقف والروح المبدعة للمبدع الجزائري.

لابد أن قراءة هذه الصورة الثقافية تنتج الفعل الثقافي للذات المثقفة والمتذوقة للفعل الإبداعي الذي يشكل من خلال الدلالات الخطابية في النظام النسقي الشامل، ضمن النسيج اللغوي ذو الأبعاد التاريخية والفكرية والفنية للذات المبدعة والمثقفة العربية فلسفيا ونفسيا وإيديولوجيا وتاريخيا واجتماعيا، التي تسعى لتحيين ثقافتها، ثقافة موجهة للتعريف بالأنا في مقابل الآخر والذّات في مقابل الذوات.

إن وظيفة الأفكار والقراءات المتولدة عن في الإبداع النسوي من جميع أنساق الخطاب تشكل ثقافة ما، مثل النص والفلسفة والدين، حيث أن المرأة المبدعة ظاهرة ثقافية تساهم في ترقية الحركة النسوية التثقيفية، ويلاحظ أن الجوانب الاجتماعية والسياسية والتاريخية والفكرية في الجدل النسوي، تساهم في تشييد الفعل الإبداعي والثقافي ورصد المضامين والأشكال الفنية والفكرية التي تنتجها المرأة المثقفة، وذلك لتشابك الفكر والفن والوعي والروح الأنثوية لدى المرأة.

5. الغاية الجمالية للذّات الكاتبة:

إن هم الكتابة عند الروائية "آسيا جبار" له مقصدية ثقافية كبرى تتناثر منه القيم الجمالية والفكرية، وجوهر ذلك الانعزال والتجلي والانفجار الجمالي الصارخ بالأنوثة، فكان الخطاب بؤرة فكر وتجل تتجاوز عبره الذات أشكال حياته وعذابها وأحلامها وآلامها في علاقتها مع الوجود، لتلج عالما

آخر، عالم التوحد والعزلة الروحية نحو معارج الإبداع، فتشريح عالم الأنا وإبرازه يتأتى "بالكتابة السير ذاتية وأولى غاياتها البعيدة، لذلك حق اعتبار هذه الكتابة ممارسة استكشافية، يبحث من خلالها المترجمون لذواتهم عن كشف مقومات هويتهم والتعرية عنها". (الطريطر، 2004، صفحة 671)

لذلك تعد الكتابة عند المرأة عالما حساسا مليئا بالحميمية الأسطورية التي تجذب الروح إلى ألوان الحياة في قمة جمال فصولها خاصة، وهي تنقل الحضارة العربية في أصالتها الثقافية "المرأة العربية إن كتبت فهي تكتب وتبدع ضد نفسها، لأنها تتكلم بلغة الرجل وثقافته وتفكر بتفكيره"، ويرى أن "غادة السمان"، مثلا، تقود كل معارك الرفض إلى موقع الاستسلام في مجازها القصصي، وهي الحالة هذه تغدو عاجزة عن تجاوز مملكة الفحولة، وغير قادرة على تأنيث المكان والذاكرة. ويدعو "الغذّامي" لتأسيس قيمة إبداعية للأنوثة أي النص والخطاب الأنثى تضارع الفحولة، من خلال كتابة تحمل سمات الأنوثة، ومحملة بطاقة الخصب والقدرة على التوالد ..." (الغذامي، 2006)

تعتبر السيرة الذاتية النسوية العربية سيرة ذاتية ذات حمولة ثقافية، لها وزنها الفكري والفني، حيث تبرز المرأة تاريخها الشخصي والنفسي والفني في إطار المجتمع الشامل والحامل لهذه الثقافة، وسعي المبدعة للكتابة، وتوسيعها لنشاطها الإبداعي هو نوع من أنواع الكتابة الأدبية رمزا للحياة؛ رغبة منها في تأكيد ذات الأنا الفردية والجماعية التي تسجل قضايا وطموحات الفرد العربي الجزائري والإنسان العالمي ككل.

المرأة الروائية والكاتبة والمؤلفة والشاعرة العربية المغاربية همها المعرفي يتركز حول القضية الوطنية، فترفع صوت قلمها من مبدأ الالتزام وبث البعد القومي في العملية الإبداعية وفي فعل الكتابة، فتذوب الروح المبدعة في أرواح تحاورها، وتحاكيها بآلامها لتوصل قضية ما، هنا تنثر الذات صوتها مع بقية الأصوات لتتوحد الأحلام والآلام والمشاعر.

أليس كل مركزية، سواء أكانت دينية أم عرقية أم مذهبية، قائمة على الأخذ بسرد مخصوص، أي الإيمان برواية معينة للماضي، وللذات، والآخر؟ وقد كشف لي السؤال جوهر العلاقة المتينة بين السرد والمركزيات الثقافية. وللتوضيح هناك أمثلة هامة دالة، فمن ذلك اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار،

وإيمان المسلمين بأن ديانتهم في خاتمة العقائد، وتصور الغربيين بأن حضارتهم هي أكمل الحضارات، ويمتد ذلك فيشمل المذاهب والأعراق والطوائف التي أخذت بسرد مخصوص يقول بالأفضلية، أي التمركز حول الذات، والانكفاء على النفس، فكل قوم معتقد، أو مذهب، أو قبيلة، يتوهم أنه الأفضل. (إبراهيم، 1995، صفحة 55)

ف "آسيا جبار" تستجيب للرغبات المسكوتة عنها والمخفية، وتبرز وجود الآخرين من الشعوب والقبائل والفرد المغلوب على أمره في عالم تدفن فيه الحقيقة، إنه الفضاء المملوء بالكراهية والظلم والدم والرعب والحرب التي يحمى وطيسها وتتأجج شظاياها في النفس الإنسانية عبر العصور، وتخلدها الكتابة والبوح الذي يعتبر الفضاء الإبداعي للروح، فارتسمت لها الصورة المبدعة للمرأة كمركز ثقافي منغلق على ذاته ومنفتح على العالم كالنسق المنغلق على بنيته النسقية، والمنفتح في نفس الوقت بعدة دلالات تريد الظهور من أجل إبراز جماليات الأنا.

6. فلسفة المرأة المبدعة:

إن فلسفة المرأة وثقافتها وصياغتها لإبداعها ينطلق من معالجتها واحتكاكها بالحياة وواقعها الاجتماعي والتاريخي والسياسي والفكري والفني، وتبحث عن حقيقة مطلقة وتهتم بأمور عامة تتعلق بالإنسانية كافة. فتنتمي النزعة الفكري لـ "آسيا جبار" إلى مضامين تاريخية وبخاصة المرأة العربية، والجزائرية بالخصوص، فالفلسفة النسوية تبرز ما هو واقعي وعيني وتاريخي وإنساني".

ومن هنا يمكن فهم الجفاء التاريخي بين المرأة والفلسفة وسبب استبعاد قضية المرأة منذ نشوء الفلسفة عن الشرائع التي تنظم الدولة، لكننا إذا فهمنا الفلسفة وفقا لتصور عدد كبير من الفلاسفة المعاصرين على أنها نشاط معياري تحليلي تركيبي يبدأ حين يتخذ الإنسان موقفا مسؤولا حيال قضايا العالم، المعرفة، الوجود، السياسة، الأخلاق والعمل، فإننا يمكن أن نستخلص موقفا فلسفيا للمذهب النسوي. فقد أفرز التنظير النسوي أسئلة فلسفية جديدة حول تعريف الفلسفة لنفسها وحول إعادة قراءة الإنسان ومسؤولياته ومفاهيم الحرية والمساواة والحقوق." (العطري، 2000، الصفحات 50-51)

ويمكن حصر ما كتبته الروائية "آسيا جبار" في هذه القضايا الستة:

- الظلم والحرب.
- الوعي القومي والوجود الثقافي.
- الاحتكاك الحضاري.
- فقدان الحرية.
- الجسد.
- الصراع بين مكانة الرجل والمرأة.

فحضور المرأة متجذر في الخطاب الروائي لـ "آسيا جبار" ما جعلها تستحضر الملاحم والأساطير القديمة، ما يطلق عليه باسم التناص الشبح Texte fantôme، فتستثمرها كمخزون معرفي من أجل إثراء خطابها فنيا وفكريا، فتبحث عن الطاقة العجائبية في الملحمة لتحورها في نصها، فكما عاد "أوذيسيوس" إلى زوجته "بينيلوب" عادت شخصية "فاطمة" لدى "آسيا جبار" إلى قريتها لتحتضن أهلها، فتحول الفعل الأسطوري والإنجاز والقوة إلى المرأة لتفرز طاقتها الأنثوية، وتبوح بروحها الجميلة كونها العالم والجنة ومهد الإنسانية وتكتب التاريخ بفسيفساء ألوانها الحياة والوجود بلغة شعرية وفنية.

تقول الروائية في روايتها "الحب والفنتازيا" بلغتها الشعرية بانزياح فني وجمالي:

"وأبقى أتأمل في سماء الليل

وأستنشق رعشات العشب

وأبتسم على خط كل ضحكة

وأعيش وأرقص بأرجل أمامية

وأتعفن على مهل

منذ وقت طويل

دائما بين أجسام وأصوات

وهذا التموج في اللغات

في حركة ذاكرة للحفر

للتعرض للشمس

تخشى من كتاباتي

للطيران

من المنفى

في انطلاقات مستمرة

علامات على الرمل السفلي

أكتب هي طريق

تفتح ..." (جبار، 2015، صفحة 42)

فالبعد الأسطوري للمرأة هو الذي يمنح القوة الخلاقة للمبدعة من أجل الولوج لعالم المرأة والقبض على التاريخ الموغل لها في الحضارة الغابرة؛ فتحاور الزمان والمكان لاستجلاء تلك الروح ومنه تليينها في لغة جمالية لا تملك إلا الحياة والكفاح بغية الحياة الأفضل والوجود الأسمى، وعليه تحقيق الثقافة، كون المرأة كعملية إبداعية هي الثقافة الحبلى بالرقي والسمو على مر العصور.

فالنسق الثقافي الحامل لحضور المرأة وشخصية البطلة العاشقة للأرض يجسد معالم الأنوثة والجمال وهي جديرة بالحياة والتقديس؛ من أجل العطاء والتضحية والإنجاز، باعتبارها الحلقة والسلاسل الذهبية التي تربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل، والحفاظ على التنوع الحضاري والتواصل الإنساني كونها الرؤية الإيجابية للأنثى البارزة في العملية الإبداعية، وأيقونة الوجود والسحر الأسمى للرجل، والشوق الأقوى والوجدان المبعوث منها هو الأعظم والأشهى، والحديث عنها هو الأحب والأمتع، وعشقها وحبها هو الأبهج أما وصالها فهو الأصعب.

7. خاتمة:

إن الدراسة الثقافية هي بحث نقدي، واستنباط للمنجز الأدبي والروائي خاصة في مضامينه الاجتماعية والبسيكولوجية والابستمولوجية والأنثروبولوجية؛ للكشف عن الوعي الفردي والجمعي للذات المبدعة والحفر في ثقافتها تنظيريا واجرائيا ومنه فإن النسق الثقافي متميز بـ:

– النسق الثقافي أفعال ثقافية لفئة مثقفة في بيئة ثقافية ما.

– يعتبر النسق الثقافي لوحة فنية وفسيفساء إنسانية لطبقة جمهورية تتعايش في زخم حضاري متطور تتوالد فيه الثقافة بنمو الوعي الثقافي أفعالا وأقوالا.

– إن اجتماع عناصر وتنظيمها وترتيبها في نسيج له دلالة ويخزن ثقافة هو بالضرورة نسق.

– النسق الثقافي بمثابة شفرة تلزم القارئ أو الدارس على تشريحها والتنقيب عن مضامينها وأشكالها الفكرية والفنية.

– يحافظ النسق الثقافي على الذات التي أنتجته وعلى الشخصية الإنسانية التي يمثلها بين المبدع والمتلقي والإنسان ككل.

– تعتبر الروائية "آسيا جبار" أيقونة الإبداع النسوي في العالم العربي وبراديغم للعملية الإبداعية النسوية.

– إن اللغة الإبداعية عند "آسيا جبار" لها طقوسها العالمية، ذات الأبعاد الإنسانية، الحاملة للقيم الفنية والفكرية، ودعوة لنشر الكتابة والفعل الإبداعي المتجاوز للأجناس والثقافات.

8. قائمة المراجع:

1. آسيا جبار، (2015)، *رواية "أصوات تحاصرني"، تر.، محمد يحياتن*، المركز الثقافي العربي، بيروت.
2. جليلة الطريطر، (2004)، *مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث: بحث في المرجعيات، ط 1*، دار محمد الحامي، تونس.
3. خليفة بولفعة، (أفريل، 2020)، الهوية والمرأة في أدب آسيا جبار، *مجلة سياقات، المجلد 5* (العدد 1).
4. سامية سي يوسف، (2014)، *اللغة وحضور الأنساق الثقافية في الخطاب الروائي، رواية ألواح البحر أنموذجا، مذكرة ماجستير*، جامعة البويرة، الجزائر.
5. سمير خليل، (2005)، *دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، ط 1*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
6. عبد العزيز شرف، (1991)، *المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ط 1*، دار الجيل، بيروت، لبنان.
7. عبد الغني العطري، (2000)، *حديث العبقريات، ط 1*، دار البشائر، دمشق، سوريا.

8. عبد الله إبراهيم، (1995)، *بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، ط 1*، المركز الثقافي العربي، لبنان.

9. عبد الله الغذامي، (2006)، *المرأة واللغة، ط 3*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

10. عبد الله الغذامي، (2008)، *النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 4*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

11. فوزية بوغنجور، (2022)، *تمثلات الآخر في الرواية النسوية المغاربية خلال القرنين 17-18، في السياق والمضامين والدلالات، ط 1*، دار ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، الجزائر.

12. ليندا جين شيفرد، (2004)، *أنوثة العلم، العلم من منظور الفلسفة النسوية، يمنى ظريف الحولي*، عالم المعرفة، الكويت.

13. نيكولاس لومان، (2010)، *مدخل إلى نظرية الأجناس، تر.، يوسفي فهمي حجازي، ط 1*، منشورات الجمل، بغداد.

14. هجيرة لعور، (2009)، *الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ط 1*، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر.

15. وحيد بن بوعزيز، (ديسمبر، 2018)، وظيفة النقد الثقافي في استنطاق النصوص المطموسة، *جريدة النصر*.